مقابلة أدبية مع :

الدكتور خليل حاوي

بقلم ناجي علوش

ما زال الشعر الحديث ، يواجه اسئلة حرجة ، صحيح ان هذه الاسئلة لا تتعلق بقبول التجديد او رفضه، فقد اصبح التجديد حقيقة واقعه ، وبات غير وارد البحث في مشكلة « القديم والحديث » . ولكن المشاكل المثارة – على الرغم من ذلك – اساسية وهامة . من هذه المشاكل مايتعلق بتركيب القصيدة الحديثة ولغتها ومنها ما يتعلق بالقاريء ولغته .

فالشعر الحديث ما زال على الرغم من مرور ما يقارب السبعة عشر عاما دون مقاييس واضحة يستند اليها في تقدمه . وما تكتبه الصحف والمجلات لا يزيد على ان يكون ترجمات واقتباسات لا تسمن ولاتغني من جوع ، وقد تسبب البلبلة في كثير من الاحيان . وشعراؤنا المجددون – والمثقفون منهم خاصة – يشعرون انهم لا يقفون على ارض صلبة ، فيتبنون آراء اليوت وغيره من شعراء الغرب الكبار دون ان يكلفوا أنفسهم عناء تحديد موقف خاص الا فيما ندر .

اما القاريء ... القاريء العادي فهو بعيد ... بعيد جدا عن المعركة ويبدو انها لا تعنيه ابدا . القاريء العادي ما زال غير معد لقبول الشعر الحديث . ذلك انه من الصعب عليه ان يقفز من « سيرة ابي زيد الهلالي » الى شعر اليوت وداريل مثلا . وهو بتكوينه اميل الى الشعر التقليدي عامة والشعر العامي خاصة .

لقد اصبح الشاعر الحديث في واد والقاريء في واد ... الشاعر الحديث يعتقد ان القاريء ما زال « دون المستوى » ، والقاريء يعتقد ان الشاعر الحديث تغرب كثيرا .

وكان لا بد ان تطرح بعض مشاكل الشعر الحديث ، على شعراء محدثين ذوي ثقافة واسعة واطلاع واسع . ولما كان الدكتور خليل حاوي من رواد شعرنا الحديث ، ومن اوسع شعرائنا ثقافة واكثرهم اطلاعا ، فقد رأينا ان نطرح عليه ما نرى انه من الضروري طرحه في هذه المرحلة .

والدكتور حاوي صاحب ثلاث مجموعات شعرية مشهورة هي « نهر الرماد » و « الناي والريح » و « بيادر الجوع » كما ان له عددا من الدراسات الادبية والنقدية.

قلت : انت من رواد الشعر الحديث ، فما هي في نظرك ، العقبات التي تواجه الشاعر الحديث ، عندما يحاول ان يكون شاعرا حديثا ؟

– في الاجابة على هذا السؤال ، يجب الا نغفل عن واقع بسيط قد ينكره الشعراء احيانا ، وهو رغبة المبتدئين في الشعر ان يكونوا متفردين . غير ان التقصد الارادي في طلب الجديد ، في البحث عن التفرد والجدة، قد يعيق الشاعر عن باوغ هذه الغاية . وافضل من تقصد الجدة ، ان يشعر الشاعر المبتديء شعورا غامضا ، بأن في نفسه مشاعر واحاسيس لم يعبر عنها سابقوه . في حالة كهذه ، لا بد من ابتداع صيغ في التعبير وانماط في الشكل تستوعب المادة المستجدة . والشاعر ينقاد في ذلك الى حدس غامض ، وليس الى نظرية مقررة فكأنه يستهدي بضوء شاحب في الضباب . وتكون محاولاته الشعرية بلورة لما غمض في نفسه وازاحة للضباب من دربه وتحديد معالمها . هذا من حيث عملية الخلق ، اما ما يجب ان يرفدها ، فثقافة موسوعية متوغلة تقبض على الحضارة العربية وحضارات الانسان في تاريخه الطويل وتصهرها فتحولها الى غذاء يتحول بدوره ، الى مادة ذاتية ، خاصة بطبيعة الشاعر . أقول هذا لان عصرنا وريث حضارات كثيرة ، ولهذا كانت حضارته موغلة في التعقيد . وكان الشاعر الذي يستطيع ان يفهمها وان يعبر عنها ، ملزما بأن يكون موسوعيا في معرفته ، على الا يصيبه ذلك بعسر هضم ثقافي . فالقدرة على التمثيل هي وجه آخر للقدرة على الخلق . هذا ما يشهد له واقع الشعر المعاصر . ان كبار الشعراء فيه هم الذين جمعوا درجة عالية من الموهبة . الى درجة عالية من الثقافة . هذه الصعوبة لا يمكن ان يتغلب عليها الشاعر العربي الحديث ، الا اذا وقف نفسه وقفا تاما على الشعر وتوفرت له اسباب التحصيل ، واوقات طويلة للتأمل الذاتي . وعند هذه الصعوبة وقف تطور الكثيرين من الشعراء المحدثين بل سقطوا وكان سقوطهم مفجعا .

س – ولكن الا تعتقد دكتور ان محاولة الشاعر تخطي ما هو تقليدي ومتعارف عليه وتجاوزه يجعل تقدمه صعبا ؟

ج – لا شك ان الشعر الحديث يواجه هذه القضية ولا يمكنه التغلب عليها ، الا اذا كان اتصاله بالتراث ، بقدر انفصاله عنه .

س – علاقة الشاعر بجمهوره من القضايا التي تثار عندما تبحث قضية الشعر الحديث . فهل ترى ان من مهمة الشاعر الحديث ان يبحث عن جمهور ، واذا كان ذلك فمن هو جمهور الشعر الحديث اليوم ، وهل سيصبح الشعر الحديث شعرا لشعب في المستقبل ؟

ج – من طبيعتي تفضيل النظر الى واقع الشعر على الاهتمام بالنظريات المجردة ، ذلك ان بحث القضايا على

مستوى التجريد قد يعقدها ونحن نبحث عن حل . والواقع ان الايصال هو غاية الشعر على اختلاف مذاهبه. ويخادع الشاعر نفسه حين يؤكد بأنه يغني لذاته . غير ان الجديد الاصيل من الشعراء قد يجد نفسه مرغما على ان يكون شاعر نفسه وفي ذلك بعض المأساة . ولكن ما يبدأ بالنفس ، يتحول شيئا فشيئا الى غذاء للاخرين ، وبهذه الطريقة يشيع الشعر باديء ذي بدء ، في نخبة مختارة ، ثم يرشح منها الى الجماهير . والامثلة على ذلك متعددة : شعر بودلير ، شعر رامبو وغيرهما . ونستطيع ان نعطي مثلا جيدا من ادبنا العربي الحديث ، هذا المثل هو جبران خليل جبران . فأدب جبران احدث ثورة ونفارا في البدء ثم ما لبث ان اصبح شائعا في جماهير القراء . اذن لا يمكننا في المرحلة الحاضرة اطلاقا ان نخاطب الجماهير مباشرة فذلك يقضي على الشعر من حيث هو فن له اصوله وقواعده ، التي متى خرج عنها لم يعد شعرا . ولنا عبرة كبيرة في شعر حافظ ابراهيم وغيره من شعراء الجماهير الذين انقطع بهم الزمن .

س ــ الا يستطيع الشاعر اذن ان يكتب للجماهير وان يقدم شعرا قويا ، رفيعا في مستواه الفني ؟

ج ــ لا يمكن اطلاقا ... ان يتوفر لشعر الجماهير ما يتطلبه الشعر من شروط ضرورية للفن . ولهذا الشاعر ان يعبر عما تعانيه الجماهير بطريقته الخاصة .

س ــ يجدالقاريء ــ حتى ولو كان مثقفا ــ صعوبة في فهم نماذج جيدة من الشعر الحديث فالام تعزو ذلك وهل تعتقد ان هذا الغموض يقف حائلا بين الشعر وجمهوره ؟

ج ــ حين نتحدث عن نخبة من المتذوقين ، يجب ان نهتم بطبيعة ثقافة هؤلاء . فتلك الثقافة ، ربما كانت عائقا بينهم وبين الشعر الحديث . ذلك ان من نشأ على الانماط التقليدية تصبح حساسيته الفنية تقليدية ، تمنعه من تلقي الانماط المستجدة . وكما ان الشاعر الذي يستهدف التجديد يجب ان يكون نبتة جديدة تسيل في عروقه حياة جديدة ، كذلك يجب ان يكون المتذوق . ويقيني ان بعض الناشئين الذين نشأوا على الشعر الحديث هم اكثر تذوقا لهذا الشعر من المثقفين ثقافة تقليدية . اما الغموض فظاهرة ترتبط بتحول الشعر الحديث عن تقرير الافكار تقريرا عاريا من الصور الى التعبير بالصورة الحسية عن الحالات النفسية والمطلقات المجردة ، وهذه من بديهيات الشعر الاصيل .

س ــ يكون الغموض على هذا الاساس من طبيعة تكوين الشعر الحديث ؟

ج ــ نعم ... ان الشعر الحديث ينشد العمق ... انه لا يرضى بالعرضي والتافه وهو اليوم ليس اغاني ذاتية فقط ، انه اكثر من ذلك . الغموض ملازم لكل شعر اصيل ، لانه مصاحب للايحاء دائما .

س ــ هل تسمح بأن ننتقل الى موضوع آخر، صحيح انه جزء من القضايا التي يثيرها الشعر الحديث ولكنه غير ما كنا نتحدث عنه . الموضوع هو قصيدة النثر ، وهي جديدة في الادب العربي وهنالك اختلاف حولها ، فهل تعتبرها قصيدة وما هو وجهها الشعري ؟

ــ الشعر من حيث التكوين يستند الى ركنين هما الايقاع والصورة . وتغلب الصورة على الايقاع في قصيدة النثر الى حد يجعلها احيانا تحمل وحدها عبء القصيدة . وقد ادرك ذلك الذين مارسوها من الشعراء الاوروبيين امثال كلوديل وسان جون برس . ولهذا نجدهم يحاولون الا يقطعوا الصلة بينها وبين الوزن الاسكندري . وهم كذلك يدخلون عليها الكثير من التوشيح في القوافي ويشيعون بعض المقطوعات الموزونة فيها . كما انهم يحاولون ان يكسروا رتابة النثر بالتحول عنه الى نبرات خطابية عالية . لهذا كله كانت قصيدة النثر اقل صفاء من القصيدة الموزونة في الادب الاوروبي . وربما قيل ان قصيدة النثر الصق بتجارب الانسان في الحضارة الحديثة تعبيرا لا يضيق عنها ولا يزورها . وهم في الوقت نفسه لم يخرجوا عن الوزن اطلاقا وعن القافية الا في النادر . وقد ادرك هؤلاء ان الايقاع المنضبط بالوزن يجعل الشعر اكثر كثافة وشحنا واكثر تحديدا . اما في شعرنا الحديث فان دعاة قصيدة النثر جميعا باستثناء شاعرين او ثلاثة لا يعون صعوباتها ولا يدركون قيمة الانضباط في الشعر فتأتي قصائدهم موزعة مبعثرة تتوكأ على الصورة فتنوء الصورة بها لان الايقاع لا يسعفها .

ناجي علوش

صدر حديثا :

ثورة الفقراء

بقلم رجاء النقاش

ثورة الجزائر المظفرة التي وصفها الرئيس بن بيللا بأنها « ثورة الفقراء » .

طبعة جديدة — منشورات

الثمن ليرتان لبنانيتان — دار الاداب